**الثقافة والطبيعة**

إن التمييز بين حالة الطبيعة وحالة المجتمع، في غياب دلالة تاريخية مقبولة، له قيمة منطقية تبرر تماما استعماله كأداة منهجية في علم الاجتماع الحديث. فالإنسان كائن بيولوجي، وهو في الوقت نفسه فرد اجتماعي، ومن الاستجابات التي يقدمها للمثيرات الخارجية أو الداخلية، نجد أن بعضها يتعلق كليا بطبيعته، في حين أن بعضها الآخر يتعلق بوضعه: وهكذا فإننا لن نجد أدنى صعوبة في الوقوف على مصدر كل من العقل المنعكس لرفة العين والوضعية التي تكون عليها يد الفارس بمجرد إمساكها بالعنان، وإذا كان من السهل نسبيا أن نقيم التمييز بين الطبيعة والثقافة على مستوى المبدأ، فإن الصعوبة تبدأ عندما نريد أن نجري التحليل، وهذه الصعوبة بدورها مزدوجة. فمن ناحية يمكن أن نحاول بالنسبة لكل موقف أن نحدد سببا بيولوجيا أو اجتماعيا. ومن ناحية أخرى أن نبحث عن الكيفية التي بها يمكن لمواقف ذات أصل ثقافي أن تنضاف إلى سلوكيات لها في حد ذاتها طبيعية بيولوجية مع نجاحها في ضمها إليها وإدماجها، إن من ينفي هذا التعارض أو لا يقدره على حقيقته، يمنع نفسه من كل فهم للظواهر الاجتماعية ومن إعطاء ذلك التعارض كامل بعده المنهجي.

 قد نجعل من مسألة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة لغزا لا يمكن حله: فأين تنتهي الطبيعة؟ وأين تبدأ الثقافة؟ يمكن أن نتصور عدة طرق للإجابة على هذه المسألة، غير أنه اتضح إلى الآن أن كل هذه الطرق خيبت الآمال على نحو كبير.

 لا يسمح لنا إذن، أي تحليل أن ندرك نقطة الانتقال من واقع الطبيعة إلى وقائع الثقافة وآلية تمفصلهما. غير أن النقاش السالف لم يفض بنا فقط إلى هذه النتيجة السلبية، فقد أمدنا عن طريق وجود القاعدة أو غيابها في السلوكيات التي لا تدخل تحت طائل التحديدات الغريزية بالمقياس الأكثر قيمة بالنسبة للمواقف الاجتماعية: فحيث تظهر القاعدة فنحن على يقين بأننا على صعيد الثقافة أو بصورة متناظرة من السهل أن نرى فيما هو عام مقياس الطبيعة، ذلك أن ما هو قار لدى جميع البشر يفلت بالضرورة من ميدان العادات والتقاليد والتقنيات والمؤسسات التي عن طريقها تتمايز مجموعاتهم وتتعارض وفي انعدام تحليل واقعي، فإن المقياس المزدوج المرتكز على القاعدة وعلى ما هو عام يعرف مبدأ تحليل مثالي يمكن أن يسمح على الأقل في بعض الحالات وفي حدود معينة- بعزل العناصر الطبيعية عن العناصر الثقافية التي تدخل ضمن التأليفات التي هي من مستوى أكثر تعقيدا. لنقل إذن إن كل ما هو عام لدى الإنسان يعود إلى الطبيعة ويتميز بالتلقائية، وإن كل ما يخضع لقاعدة ينتمي إلى الثقافة، ويتسم بصفتي النسبة والخصوصية.

  **كلود ليفي-ستروس**

Les structures élémentaires de la parenté, Ed. P.U.F. pp, 1-3-4

**أ-التعريف بصاحب النص** ا كلود ليفي – ستروس Claude Lévi-Strauss: هو أنتروبولوجي فرنسي ولد في بروكسل عام 1908. أصبح أستاذا للفلسفة في مدارس مون دومارسان، ثم لاوون (1932-1934) بعد أن أنهى دراساته الثانوية، والعالية في باريس (إجازة في الحقوق، شهادة الأستاذية في الفلسفة عام 1931). قام ببعثات إتنوغرافية عديدة في ماتوغروسو ثم في الأمازون بصفته عضوا في البعثة الجامعية في البرازيل. وأستاذا في جامعة ساو باولو من عام 1935 إلى عام 1938. استدعي إلى الجيش عام 1939 ونجح بعد 1940 في مغادرة فرنسا إلى الولايات المتحدة حيث درّس في نيويورك في المدرسة الجديدة للبحث الاجتماعي، وفي **"**المدرسة الحرة للدراسات العليا**"**. بعد ذلك أصبح مستشارا ثقافيا في السفارة الفرنسية في الولايات المتحدة من عام 1945 إلى عام 1948. لدى عودته إلى فرنسا، أصبح دكتورا في الآداب عام 1948 بعد أن ناقش أطروحة البنى الأولية للقرابة **(**وأطروحة تكميلية: الحياة العائلية والاجتماعية لهنود نامبيكورا**).**  تم تعينه نائبا لرئيس متحف الإنسان عام 1949 وأصبح في السنة نفسها مدير الدروس في المدرسة التطبيقية للدراسات العليا ومدرس الديانات المقارنة للشعوب التي لا تعرف الكتابة. ثم أستاذا في الكوليج دو فرانس ومدرّس أنتروبولوجيا اجتماعية من 1959 إلى 1982، وحتى هذه الفترة التي تقاعد فيها، أشرف على مختبر الأنتروبولوجيا الاجتماعية الذي أسسه عام 1960. انتخب عضوا في الأكاديمية الفرنسية عام 1973.[[1]](#footnote-2)

**ب-فهم النص**

**1-تفكيك النص**

- التمييز بين الحالة الطبيعية وحالة المجتمع له قيمة منطقية من الناحية المنهجية في علم الاجتماع. فالإنسان كائن بيولوجي له استجابات طبيعية وهو في الوقت نفسه فرد اجتماعي له استجابات تتعلق بالثقافة.

- التمييز بين الطبيعة والثقافة سهل على مستوى المبدأ وصعب على مستوى التحليل. وهي صعوبة مزدوجة: فمن ناحية تتمثل في محاولة إيجاد سبب بيولوجي أو اجتماعي لكل موقف، ومن ناحية أخرى تتمثل في البحث عن الكيفية التي بها يمكن لمواقف ذات أصل ثقافي أن تنضاف إلى سلوكيات لها في حد ذاتها طبيعة بيولوجية مع نجاحها في ضمها إليها إدماجها، أي أن هذه الصعوبة تكمن في التداخل بين ما هو ثقافي وما هو طبيعي.

- مسألة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة إشكالية لم يقدم بشأنها أي حل مقبول.

- على مستوى التحليل لا يمكن إدراك نقطة الانتقال من واقع الطبيعة إلى وقائع الثقافة.

- التمييز بين الطبيعة والثقافة يقوم على أساس المقياس التالي. فحيث تظهر القاعدة فنحن على صعيد الثقافة والطبيعة تظهر فيما هو عام. وكل ما هو عام يتميز بالتلقائية، وكل ما يخضع لقاعدة يتميز بصفتي النسبية والخصوصية.

**2-الكلمات المفتاحية:** الطبيعة، الثقافة.

**3-الفكرة العامة:** سهولة التمييز بين الطبيعة والثقافة على مستوى المبدأ وصعوبته على مستوى التحليل.

**4-الإشكال:** هل يمكن التمييز بين الطبيعة والثقافة؟

**جـ-المقالة**

1)- من المعروف أن إشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة، أي إشكالية الانتقال من الأولى إلى الثانية، وأهمية ذلك في تطور الكائن البشري، هي إشكالية فلسفية، مطروحة سابقا وقد ورثها الفكر المعاصر عن الفكر الفلسفي الحديث. والأنتروبولوجيا بدورها مع كلود ليفي ستروس طرحت هذه الإشكالية واهتمت بها اهتماما كبيرا. فإذا كان السلوك البشري تتقاسمه الطبيعة من جهة والثقافة من جهة أخرى فهل يمكن التمييز في هذا السلوك بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي؟

2)- من الصعوبة بمكان على مستوى التحليل التمييز بين ما هو طبيعي وما هو ثقافي وإن كان سهلا على مستوى المبدأ.

3) يبدأ ليفي-ستروس بتبيان أهمية التمييز بين الحالة الطبيعية وحالة المجتمع الذي له قيمة منطقية من الناحية المنهجية في علم الاجتماع. فالإنسان كائن بيولوجي له استجابات طبيعية وهو في الوقت نفسه فرد اجتماعي له استجابات تتعلق بالثقافة.

صعوبة التمييز بين الطبيعة والثقافة مزدوجة: فمن ناحية تتمثل في محاولة إيجاد سبب بيولوجي أو اجتماعي لكل موقف، ومن ناحية أخرى تتمثل في البحث عن الكيفية التي بها يمكن لمواقف ذات أصل ثقافي أن تنضاف إلى سلوكيات لها في حد ذاتها طبيعة بيولوجية مع نجاحها في ضمها إليها إدماجها، أي أن هذه الصعوبة تكمن في التداخل بين ما هو ثقافي وما هو طبيعي.

مسألة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة إشكالية لم يقدم بشأنها أي حل مقبول.وعلى مستوى التحليل لا يمكن إدراك نقطة الانتقال من واقع الطبيعة إلى وقائع الثقافة.

ويضع الكاتب أخيرا تمييزا بين الطبيعة والثقافة يقوم على أساس المقياس التالي. فحيث تظهر القاعدة فنحن على صعيد الثقافة والطبيعة تظهر فيما هو عام. وكل ما هو عام يتميز بالتلقائية، وكل ما يخضع لقاعدة يتميز بصفتي النسبية والخصوصية.

4)-ثمة خطوات قطعها ليفي\_ستروس في تناوله لإشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة. وقبل أن نعرض لها، ينبغي أن نبدأ بالتعريف الذي يعطيه لمفهومي الطبيعة والثقافة. **"** فالطبيعة هي ما نتوارثه من الجانب البيولوجي، بينما الثقافة هي على العكس من ذلك، كل ما نستمده ونكتسبه من التقاليد الخارجية، أي من التربية. إن الثقافة أو الحضارة هي مجموع العادات والمعتقدات والمؤسسات مثل الفن والقانون والدين، وتقنية الحياة المادية. وباختصار هي كل العادات والمهارات التي يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في مجتمع**".** نفهم من مقارنة التعريفين أن الطبيعة والثقافة تمثلان نظامين كبيرين ومتقابلين. والإنسان، وهو هنا المعنى أساسا بالإشكال الذي يطرحه ذلك التعارض، ينتمي إلى نظام الطبيعة بصفته كائنا عضويا حيا وله خصائص بيولوجية. كما ينتمي إلى نظام الثقافة باعتباره عضوا في مجتمع.

فكيف تحقق الانتقال من أحد النظامين إلى الآخر؟ من نظام الطبيعة إلى نظام الثقافة؟ وما هي المعلمة البارزة التي تحدد بها لخطة ذلك الانتقال؟ المحاولات الأولى للإجابة عن هذا السؤال نجدها في **"**البنيات الأولية للقرابة**"**. وبالفعل فإن ليفي\_ستروس في الفصلين الأولين من هذا الكتاب يقترح فكرة أن وجود اللغة المنطوقة، يمكن أن يعتبر معلمة للاسترشاد من أجل تحديد الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة. وقد عبر ليفي\_ستروس عن ذلك بقوله: **"**كان دائما من بين أهدافي إثبات أن الخط الفاصل بين الطبيعة والثقافة يتحدد باللغة المنطوقة"**.** وحسب هذه الفرضية الأولى، فإن ظهور اللغة المنطوقة عند الإنسان يمكن اعتباره بمثابة بداية لدخوله في عالم الثقافة. فاللغة هي الجذع المشترك لجميع أشكال الثقافة، بل هي كيان الثقافة بالذات. فالإنسان يتميز عن سائر الكائنات الحية بالوظيفة الرمزية التي تشكل اللغة نموذجها الأرقى.

الظاهر إذن؛ أن ظهور اللغة المنطوقة يكتسي أهمية قصوى بالنسبة للأنتروبولوجيا البنيوية، وهو المشكل الحقيقي والأساسي الذي يعنيها. كتب ليف\_ستروس في هذا السياق: **"**في اليوم الذي نستطيع فيه إيجاد حل لمشكل أصل اللغة، سنفهم كيف يمكن إدماج الثقافة في الطبيعة، وكيف تحقق الانتقال من أحد النظامين إلى الآخر**".** البحث عن أصل اللغة معناه إذن، بالنسبة لليفي\_ستروس، البحث عن المفتاح الأساسي لفهم ما هي الثقافة وكيف نشأت. ولكن يبدو أن حل مشكل أصل اللغة ليس بيد الأنتروبولوجيا البنيوية، على الرغم من كونها تساهم جزئيا من خلال أبحاثها، في تحسين معارفنا عن الكيفية التي يشتغل عليها العقل البشري. فالحل يوجد، أو من الممكن أن يوجد عند علماء البيولوجيا وجراحي الجهاز العصبي، ذلك لأن المشكل يتعلق بالأساس **"**يبنيه الدماغ البشري، بظهور وظيفة خاصة يتميز بها البشر، هي الوظيفة الرمزية**".**

ليست الثقافة من منظور الأنتروبولوجيا البنيوية سوى مجموعة من الأنساق الرمزية توجد في مقدمتها اللغة. وبما أننا نجهل الكثير عن الطبيعة العضوية للدماغ البشري التي تحدد قدرة الإنسان على اصطناع الرموز، فليس أمامنا إلا أن ننتظر من البيولوجيا والفسيولوجيا أن تسعفانا يوما ما بحل هذا المشكل. فليفي\_ستروس يؤكد بأنه ليس هناك **"**أي تحليل واقعي يسمح بتحديد نقطة الانتقال من وقائع الطبيعية إلى وقائع الثقافة، وكيفية تمفصلهما**".**

ولكنه يقترح، من أجل تخطي هذه الصعوبة مؤقتا، معيارًا يمكن من خلاله التمييز بين الطبيعة وبين الثقافة، وتحديد لحظة الانتقال من الأولى إلى الثانية. فكل ما يتصف بالكلية وبالضرورة عند الإنسان يمكن اعتباره راجعا إلى الطبيعة، وعلى العكس من ذلك كل ما يخضع لقاعدة اجتماعية ينتمي إلى نظام الثقافة. ولكن هناك ظاهرة اجتماعية فريدة من نوعها يبدو أنها تشد عن هذا المعيار المقترح، فهي تتصف في الآن نفسه بهاتين الخاصيتين معا، والمقصود هنا ظاهرة حظر الزواج والعلاقات الجنسية مع الأقارب. فهذه الظاهرة، وإن كانت قاعدة اجتماعية، تتميز من بين سائر القواعد الاجتماعية المعروفة، بكونها كلية وتوجد في جميع المجتمعات تقريبا، فهل نقول بصددها بأنها تنتمي إلى الطبيعة وإلى الثقافة في الوقت نفسه؟ وذلك ما يذهب إليه ليفي\_ستروس بالفعل، فمن حيث أن تحريم وحظر الزواج من الأقارب ظاهرة تتصف بالطابع العام والشمولي فهي تنتمي إلى الطبيعة، ومن حيث أنه قاعدة وعرف، فهو ظاهرة اجتماعية ترجع إلى الثقافة. وقد كتب في هذا السياق: **"**ليس تحريم الزواج من الأقارب ذا أصل طبيعي محض، ولا ذا أصل ثقافي خالص... إنه يؤسس الخطوة الرئيسية التي تحقق بفضلها، وبالأخص من خلالها، الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة**".** ويتوجب علينا أن نفهم من ذلك أنه قبل وجود ظاهرة تحريم الزواج من الأقارب لم تكن الثقافة قد نشأت بعد. وبعد وجود تلك الظاهرة ألفت الطبيعة عند الإنسان عن أن تبقى السلطة الوحيدة المهيمنة عليه.

ويبدو أن ظاهرة حظر الزواج من الأقارب كانت بالنسبة لأبحاث ليفي\_ستروس الأكاديمية الرئيسية، بمثابة ذلك الحجر الفلسفي الذي مكنه من أن يفسر كيفية الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة. فلكي تكون هناك ثقافة كان من الضروري أن تنشأ تلك الظاهرة، وكأن سبب نشأتها يكمن فقط في نتائجها المرئية، أو بعبارة أخرى، في الغاية اللاشعورية التي سعت إلى تحقيقها: تأسيس دعائم الأسرة والحياة الاجتماعية. وكأننا بليفي\_ستروس هنا، يدعونا للوقوف إعجابا وافتتانا بهذه الفعالية اللاشعورية للعقل البشري، التي فضلت عن قصد النظام الاجتماعي على الغرائز الحيوانية أي الثقافة على الطبيعة.

وفي تصور ليفي\_ستروس لا يوجد أي اختلاف بين التفسير الأول للحظة الانتقال من الطبيعة إلى الثقافة، الذي يقوم على اعتبار اللغة المنطوقة هي العامل الحاسم، وبين هذا التفسير الثاني للإشكال نفسه. فظاهرة تحريم الزواج من الأقارب التي ينتج عنها في المجتمع نظام القرابة وعلاقات المصاهرة، هي ظاهرة كلية مثل اللغة تماما، كما أنها تعتبر نمطا من اللغة أي **"**مجموعة من العمليات هدفها إقامة نوع من التواصل بين أفراد المجموعات البشرية**"**. إن أنظمة القرابة الناتجة عن تلك الظاهرة، تشكل مثل اللغة أنساقا رمزية للتواصل الاجتماعي بواسطة النساء باعتبارهن علامات، لقد كتب قائلا: **"**لقد اقتضى انبثاق الفكر الرمزي ونشأته، أن تعتبر النساء كأشياء للتبادل مثلها مثل الكلمات**".**

أصبح بإمكاننا الآن أن نقول بأن ظهور الوظيفة الرمزية عند الإنسان، ونشأة التواصل الاجتماعي بواسطة الرموز بصفة عامة، يمثلان في نظر الأنتروبولوجيا البنيوية تلك اللحظة الحاسمة التي تحقق فيها انتقال الإنسان من مجرد كائن طبيعي، إلى كائن ثقافي. وقد ضمت الأجزاء الأربعة لمؤلفه الكبير حول الفكر الأسطوري، التصورات الميتولوجية للظواهر التي ترمز في أذهان البشر إلى لحظة الانتقال من حالة الطبيعية إلى حالة الثقافة، وأبرزها مثلا تحول الإنسان في عادات أكله من النيئ إلى المطبوخ الذي نتج عن اكتشاف النار، ومن حالة العري إلى اللباس.

إذا كانت الوظيفة الرمزية للعقل البشري هي الأصل في نشأة الثقافة، فإن الإشكال المطروح لم يجد بعد حلا له ذلك لأن هذه الوظيفة كما قلنا سابقا هي ذاتها في حاجة إلى تفسير. وبالتالي فإن تفسير الثقافة متوقف عليها، وهنا يصبح من الضروري العودة إلى الطبيعة ذاتها للبحث عن أصل الثقافة. لقد بدا لليفي\_ستروس أن ظهور الفكر الرمزي عند الإنسان هو بمثابة الحد الذي يبدأ عنده تمييز الطبيعة عن الثقافة. ولكن مع تشعب أبحاثه لم يستقر على هذا الرأي، وبدا كأنه تراجع إلى تفسير طبيعي محض يرد الظاهرة الثقافية كليا إلى الطبيعة. لقد أعْلن سنة 1960 بمناسبة توليه لكرسي الأنتروبولوجيا الاجتماعية والثقافية أن لغز ظهور الثقافة سيظل **"**مستعصيا فهمه على الإنسان، ما لم يتوصل على المستوى البيولوجي، إلى تحديد المتغيرات البنيوية أو الوظيفية التي حدثت في الدماغ، وكانت الثقافة نتيجتها الطبيعية **".**

أما في كتاب  **"**الفكر المتوحش**"** عام 1962 فإن ذلك التعارض بين الطبيعة والثقافة، الذي طالما تم التأكيد عليه من قبل، لم يعد الآن يحظى في نظره إلا بقيمة منهجية. لقد أصبح يميل إلى اقتراح موقف جديد يبدو جذريا، حيث يدعو فيه إلى **"**إعادة إدماج الثقافة في الطبيعة، وفي النهاية الحياة في مجموع شروطها الفيزيائية والكيميائية ".

لقد أصبح مقتنعا أن الخط الفاصل الذي اقترحه سابقا للتمييز بين الطبيعة والثقافة والذي يتمثل في ظهور التواصل بواسطة الرموز من خلال اللغة وعلاقات القرابة، لم يعد في نظره يحمل اليقين نفسه الذي كان يضفيه عليه، خاصة بعد أن كشفت دراسات حديثة، أن التواصل بواسطة الرموز، ليس ميزة مقصودة على الإنسان وحده، إذ هناك أيضا عديد من الحيوانات تتواصل فيما بينها بواسطة رموز معقدة.

لقد أصبح ذلك الخط الفاصل الآن في نظره رقيقا جدًا وأكثر التواء، وأقل واقعية مما كان يتخيله من قبل.

لقد أصبح يتبنى التفسير الطبيعي للثقافة، يقول ليفي\_ستروس في البنيات الأولية للقرابة 1967: **"** ربما أمكن لنا أن نكتشف في النهاية بأن تمصل الطبيعة والثقافة لا يتخذ مظهرا مقصودا لمملكتين متراتبتين يستحيل رد إحداهما إلى الأخرى. إن الأمر يتعلق بالأحرى باستعادة تركيبية سمح إمكانها بظهور بعض البنيات الدماغية التي ترجع هي ذاتها إلى الطبيعة ".

بإمكاننا الآن أن نلخص ونقول، بأن الرأي الأخير الذي استقر عليه ليفي\_ستروس بخصوص إشكالية العلاقة بين الطبيعة والثقافة يمكن صياغته فيما يلي: ليست هناك بين الطبيعة والثقافة قطيعة جذرية، وبالإمكان تصور رد الثانية إلى الأولى، وهذا هو ما تطمح البنيوية إلى تحقيقه. ولكن واقعنا البشري يكشف لنا أننا مكونون، بحيث أننا ندركهما كما لو كان يشكلان نظامين متمايزين، بينما يتعلق الأمر في الحقيقة، بطرفي سلسلة تظل حلقاتها الوسطى غير مرئية بالنسبة لنا، لأنها توجد وراءنا ضاربة في أعماق الزمن.

وبرد الثقافة إلى الطبيعة وبالتالي انهيار التفرقة بين البيولوجي والثقافي، الذي تلغى فيه الحواجز بين المادي والعقلي، ألسنا أمام تصور مادي جديد للثقافة وللإنسان، تنتقل فيه الحتمية دائما في اتجاه واحد من الطبيعة إلى الثقافة؟

4- وعليه يمكن القول في الأخير أن التعارض الذي أقره ليفي\_ستروس بين الطبيعة والثقافة صار أمرا مشكوكا فيه مع توسع أبحاثه، وصار من الضروري رد الثانية إلى الأولى. وقد ترتب عن هذا تصور مادي للثقافة وللإنسان.

1. - بيار بونت وميشال إيزار، **مرجع سابق**، ص 782-786. [↑](#footnote-ref-2)